الموشى

أو

الظرف والظرفاء

لأبى الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء

تحقيق

كمال مصطفى

الطبعة الثانية

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخانجى

شارع عبد العزيز بمصر

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

الموشى
أو
الظرف والظرفاء

لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء

تحقيق

كمال مصطفى

الطبعة الثانيـة

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخـانجي

شارع عبد العزيز بمصر

مطبعة الاعتماد بمصر

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

« وبعد » فهذا كتاب الموشى، أو «الظرف والظرفاء»[1]، لأبى الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء، الذى عاش فى النصف الأخير من القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ — ٩٣٦ م).

وهو كتاب فريد فى بابه، يمثل آداب عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ولقد رمى المؤلف إلى إعطاء صورة عن الرجل الظريف، وما يجب أن يتحلى به من محاسن، وما يجتنب من مساوىء.

وعسى أن يكون هذا الكتاب أول ما ألف فى صور الظرف، وآداب

---

(١) كان المرحوم السيد محمد أمين الخانجى الكتبى أول من نشر هذا الكتاب بمصر، وقد أطلق عليه « الظرف والظرفاء » وقدمه بهذه الكلمة :

بسم الله الرحمن الرحمن

تباركت اللهم أحسن الخالقين * ونصلى ونسلم على نبيك سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

(وبعد) فانى عند ما صممت للاتجار فى الكتب صيب الله إلىّ نشر النافع منها فكنت أرجع فى اختيارى إلى مصنفات الصدر الأول لموقع اختيارهم فيما يدونوه من العلم فى كل فن * وهذا كتاب عرف بالموشى تأليف أبى الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء أحد أئمة الأدب فى القرن الثالث وممن أخذ عن أبى العباس محمد بن يزيد النحوى المعروف بالمبرد وقعت إلى نسخة منه فانتحلت له اسم (الظرف والظرفاء) ليطابق مسماه ويكون عنوانا على حليته وحلاه والله المستعان على كل حال

كتبه

محمد أمين الخانجى الكتبى

السلوك والليقان ، وهى ما تسمى الآن فى العرف الافرنجي « بالاتيكيت » ، وانه ليدل على أن المسلمين قدشغلوا بهذه الصور ، وألفوا فيها ، قبل أن يشغل بها الغربيون ويؤلفوا فيها بأكثر من ألف سنة .

الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية على عهد المؤلف :

كانت الدولة العباسية دولة فارسية ، يعلوها خليفة عربى ، فالفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها ، فكانوا ركن الخلافة ودعامتها ، وولاتها وساستها ، وكفاتها وقادتها ، ومشيريها ووزراءها ، ومفكريها وعلماءها ، وكتابها وشعراءها ، فاصطبغت الدولة بصبغة فارسية ، وتغلبت هذه الصبغة على الحضارة العربية.

وانتقلت الخلافة من بلاد العرب إلى العراق الفارسى ، واتخذت قصبتها بغداد ، أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأصبحت بغداد خلفا من المدائن .

وأطلق الخلفاء أيدى الموالى فى سياسة الدولة ، فاستقلوا بشؤونها ، واستبدوا بأمورها .

ودخلت فى تكوين الدولة عناصر أخرى : تركية وسريانية ورومية وبربرية ، وتمازج العرب بهذه العناصر بالتزاوج والتناسل ، واختلطت المدنية الآرية بالمدنية السامية ، ولكل منهما لغة ، وأخلاق وعادات ، واعتقادات ، أثرت فى الأخرى .

وبلغت الدولة فى زمن العباسيين ذروة المجد والحضارة ، فعم الأمن ، وكثر الخير ، واتسعت أبواب الرزق ، وتفرغ القوم للتمتع بما فاض لديهم ، ورتعوا فى بحبوحة العيش ، وتأنقوا فى انواع الترف ، من مطعم وملبس ، وزخرف البناء والرياش[1] والمعاش ، وصقلت[2] طباعهم ، ورقت أذواقهم ،

(١) الرياش : الزينة .

(٢) صقلت : جليت .

وأمست بداوتهم أثرا بعد عين ، وأصبحوا يتقلبون على الطنافس[1] الحريرية فى القصور المذهبة تحيط بها الحدائق الغناء ، ويلبسون الخز[2] والديباج[3] ، ويطعمون الفالوذ[4] والسكباج[5] ، وهيهات . . . زمان كانوا يحسبون فيه الكافور[6] ملحا ، والرقاق كاغدا[7] .

ولما أن اتسعت رقعة البلاد ، واختلط العرب بعدة شعوب ، وانتقلت إليهم حضارات جديدة ، وطغت هذه الحضارات ، وانغمس الناس فيها ، أخذت رهبة الدين تنحسر عن قلوبهم ، فاستمتعوا بكل ما حوت البلاد من عيش ناعم ، وملك باسم ، وزهو ولهو ، وعزف وقصف .

ولقد أجلب الفرس على العرب بكل ما يُصبى القلوب ، من سماع وشراب ، وكواعب أتراب ، وأغرقوهم فى بحر طام من السرف والترف[8] ، والمحارم والمآثم ، وراح العرب يخطرون فى مطارف[9] الفرس ، ويلعبون فى ملاعب الفرس ، ويشربون فى مشارب الفرس ، ويتأدبون بآداب الفرس ، ويتخلقون بأخلاق الفرس .

وضعف سلطان الدين فى قصور الخلافة ، واعتلى الحكم فيها ملوك يتوارثون الحكم ، واطلقت الحرية فى الدين ، فشاعت المقالات المختلفة فى الالحاد والسياسة .

---

(١) الطنافس : البسط ، ومفردها طنفسه (بضم الأول والثالث وكسرهما) .
(٢) الخز : نسيج من الحرير والصوف .
(٣) الديباج : نسيج من الحرير الخالص .
(٤) الفالوذ : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل .
(٥) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل .
(٦) الكافور : صمغ أبيض قوى الرائحة يؤخذ من شجر الكافور .
(٧) الرقاق : الخبز المنبسط الرقيق . والكاغد : الورق .
(٨) الترف : الترفه .
(٩) المطارف : جمع مطرف ، رداء من خز ذو أعلام .

وكان مما أفاء الفتح الاسلامى على العرب كثرة الجوارى ، فنفذن إلى الساحة العربيـة ، واقتناهن العرب ، وأقحموهن فى حياتهم ، فكن من عوامل بنائهـا الاجتماعى ، وسايرت النساء العربيات فى تكوين الأسر فى الأوساط المختلفة ، حتى أصبح الجمهرة الساحقة من خلفاء بنى العباس من أولاد الجوارى (٣٦ من ٣٩ خليفة) .

ولمـا راجت سوقهن ، وكثر اقبال الناس عليهن ، عنى النخاسون ومواليهن باعدادهن لهذه الحياة على خير الوجوه وأكملها ، فعلموهن الرواية والشعر والاجازة والمطارحة والغناء ، وكلما نبغت جارية فى هذه الضروب غالى صاحبها فى الثمن ، واشتط فى التقدير .

ولقد انتشرت تجارة الرقيق فى ذلك العهد ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » انتهب فى الفتنة بين الأمين والمأمون ، وبكاه شاعر فى قصيدة طويلة آخرها :

ومهما أنسَ من شَىْءٍ تَوَلَّى   فَإِنِّى ذَاكِرٌ دَارَ الرَّقِيقِ

واشتهر فى ذلك العصر كثير من النخاسين فى بغـداد ، وسبب شهرتهم مالهم من جوار حسان ، يأوى اليهن الشعراء والأدباء .

فمنهم نخاس يُكنى « أبا عُمَيْرٍ » كان له جوار قيان لهن ظَرف ، وكان من جواريه جارية تسمى « عَبَّادة » هَويها عبد الله محمد بن البواب فيقول :

لو تَشَكَّى « أبُو عُمَيْرٍ » قليلا   لَأَتيناه من طريق العيـاده
فقضينا من العيادة حقا   ونظرنا فى مقلتَىْ « عَبَّادَه »

ومنهم « أبو الخطاب » النخاس ، كان له جارية تعرف بذات الخال ، كان يهواها ابراهيم الموصلى .

ومنهم «حرب بن عمرو الثقفى» كان نخاسا ، وكان له جارية مغنية ، وكان

الشعراء والكتاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها يسمعونها ، وينفقون في منزله النفقات الواسعة ، ويبرُّونه ويهدون اليه ، وفيها وفيه يقول أشجع :

أَشْكو الذى لاَقَيْتُ من حُبِّها — وبُغض مولاها إلى الرَّبِّ
من بُغْض مَوْلاها ومن حُبِّها — سقِمت بين البغض والحُبِّ
فاختلجا فى الصدر حتى استوى — أَمْرُهُما فاقتَسَما قلبى
تعجل الله شفائى بها — وعَجَّل السُّقْم إلى حَرْبِ

وكان قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء تعج بالجوارى والقيان ، من أمم متعددة ، تختلف فى الطباع والعادات واللغات ، وكانوا يتخذون منهن، فى مجالس الأنس وليالى الصفو ، بلابل يصدحن بأعذب الألحان ، بين رنين الكؤوس وبهجة الندمان .

ويقول أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه الأغانى : ودخل احمد بن صدقة على المأمون فى يوم السعانين [1] ، وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنّرات ، قد تزيّنّ بالديباج الرومى ، وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون ، فقال المأمون : ويلك يا أحمد ، قد قلت فى هؤلاء أبياتًا فغنِّنى فيها ، ثم أنشدنى :

ظِبَاءٌ كالدّنانيرِ — مِلاَحٌ فى المقاصِيرِ
جَلاهنّ السّعانين — علينا فى الزّنانير [2]
وَقَدْ زَرْفَنّ أصْدَاغًا — كأذنابِ الزّرَازِيرِ [3]

---

(١) يوم السعانين ، عيد للنصارى ، ويسمى عيد الزيتونة ، والشعانين ، وتفسيره بالعربية : التسبيح ، ويعملونه فى سابع أحد من صومهم .

(٢) الزنار : ما يشد على الوسط .

(٣) زرفن شعره : جعله كالزرافين ، وهى الحلق الصغير واحدها زرفين . الزرازير : جمع زرزور ، طائر من نوع العصفور .

وأقبلنَ بأوساطٍ كأوساطِ الزّنابيرِ

ودعاهم الشغف بالغناء الى تعليمه الجوارى ، للتمتع بغنائهن ومنظرهن معا ، وتعلم الغناء استتبع تعلم الأدب ، لأن الناس فى ذلك العصر كانوا يتغنون بالشعر العربى الفصيح ، والمغنية لاتحسن أن تغنى هذه الأشعار إلا إذا حفظت كثيرًا من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف ، واطلعت على كثير من الأدب .

ولقد نبغت الجوارى فى العصر العباسى نبوغا عظيما ، ووصل فن الغناء على أيديهن الى أبعد غاية من التقدم والرقى ، وعنى العباسيون بالمتأدبات النابغات منهن ، حتى قيل ان الرشيد اتخذ ألفى جارية فى قصره ، لكل منهن صنعة وفن وميزة فى الأدب والموسيقى والطرب .

ورغب الناس فى الجوارى ، ولاسيما المتأدبات المغنيات منهن ، وتنافسوا فى شرائهن أسوة فى ملوكهم .

وتسربت روح الأدب من الجوارى المتأدبات إلى طبقة من بنات البيوتات ، فكان للجوارى أثر كبير فى انطلاق الكثيرات الى قرض الشعر ومطارحة كبار الشعراء .

وكان لمجالس الخلفاء العباسيين روح دنيوية ، وكانت مجالس الغناء فى عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بنى العباس تعد من عجائب الفن .

وكان من أثر الجوارى فى الأدب قرضهن الشعر فى أغراضه المختلفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وعتاب ووصف ، لأن اعدادهن لتلك الحياة العربية الرائعة الفخمة نبه فى كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطرى ، وكثرة ماروين من الأشعار الكثيرة فى الأغراض المختلفة .

ويقول الجاحظ فى رسالة القيان : وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت[1] فصاعدا ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدا مايدخل

(١) أغنية

فى ذلك من الشعر ، اذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرة آلاف بيت . . .

وكان كثير من هؤلاء الجوارى يحسن الشعر وصناعته ، كما يحسن الغناء ، وكن يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب ، ويفرغن على الشعر العربى حلة مُذهبة النسج ، واضحة النهج ، صفية الديباجة ، خفيفة الروح .

وكان العصر العباسى عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجوارى ، يبتدئ الشاعر ببيت من الشعر ، فتعارضه الجارية بمثله على وزنه ورَوِيّه وفى بقية معناه ، وأكثر ماتكون الغلبة للنساء ، فقد كن أسرع بديهة ، وأرق طبعاً

ومن حديث ذلك ان اعرابيا ذهب إلى عنان جارية الناطفى ، وصاحبة أبى نواس ، فقال : بلغنى انك تقولين الشعر ، فقولي بيتا ، وكان السلولى الشاعر عندها ، فقالت : قل أنت ياعم ، فقال السلولى :

لقد جدّ الفراق وعِيل صبرى　　　عشيَّةَ عِيرهم للبين زُمَّت

فقال الأعرابى :

نظرت إلى أواخرها ضُحَيّا　　　وقد بانت وأرضَ الشام أمَّت

فقالت عنان :

كتمت هواكم فى الصدر منّى　　　على أن الدموع علىّ نمّت

فقال الأعرابى : أنتِ والله أشعرنا ، ولولا أنك بحرمة رجل لقبّلتك ، ولكنى أُقبِّل البساط .

وقال بكر بن حماد الباهلىّ : لما انتهى إلىّ خبر عنان جارية الناطفى ، وأنها ذكرت لهارون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ، خرجت معترضاً لها ، فما راعنى إلا الناطِفى مولاها ، فقال لى : هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، ومجالسة عنان ؟ فقلت : مابعد عنان مطلب ؛ ومضينا حتى أتينا منزله ، ثم دخل ، فقال : هذا بكر شاعر باهلة يريد مجلستك اليوم ، فقالت : لا ، والله إنى

لكسلانة ، فحمل عليها بالسوط ، وقال لى : ادخل ، ودمعها يتحدر كالجمان ، فقلت أجيزى :

هذى عنان أسبلت دمعها كالدُّرّ إذ ينسل من خيطه

فقالت :

فليت من يضربها ظالما تجفُّ كفّاه على سوطه

ثم أنشدتها :

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفّس فى أحشائه فتكلما

فقالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعًا بكيت له دما

فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟

بديع حُسْن بديع صَدٍّ جعلت خدِّى له مَلَاذا

فأطرقت ساعة ، ثم قالت :

فعاتبوه فعنفوه فأوعدوه ، فكان ماذا ؟

فاذا قدر الانسان الزمن الذى قيلت فيه هذه الاجازة ، أصبح فى غنى عن التعليق عليها ، والاعجاب بقدرة عنان ، والثناء عليها فى موقف كهذا ، قد يعجز أنبغ الشعراء .

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتًا غريب القافية ليعجزها ، فقال :

لاذ بها يشتكى اليها فلم يجد عندها ملاذا

فما لبثت أن قالت :

ولم يزل ضارعًا اليها تهطل أجفانه رَذاذا

فعاتبوه ، فزاد ، عشقًا فمات وجدًا فكان ماذا ؟

ولما دخلت فضل على المتوكل قال لها : أشاعرة أنت ؟ قالت : كذا زعم الذى باعنى واشترانى ، فضحك وقال : أنشدينا شيئا من شعرك ، فقالت :

استقبل الملكَ إمام الهدى عام ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك الناس ثمانينا
لا قدس الله أمرأً لم يقل عند دعائى لك : آمينا

ولما أُكرهت محبوبة ، جارية المتوكل ، على الغناء فى مجلس أعدائه ، بعد أن قتل ، وصدفت عن زهرة الدنيا ، حداداً عليه ، ووفاء له ، وزهداً فى الدنيا بعده ، قالت :

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا هيا مٍ وحزن فقد برا
غير محجوبة التى لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
ان موت الكئيب أصـ ـلح من أن يعمرا

وإن فى هذا الشعر للوناً صادقاً من العاطفة والنبل .

ومن فضل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن بين الشعر والغناء ، فكانت الجارية تقول الشعر ، ثم توقعه ، ثم تغني به ، فتخرجه أحسن مخرج ، وتؤثر به أنفذ تأثير .

يقول الأغانى فى عريب : كانت مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخط والمذهب فى الكلام ، ونهاية فى الحسن والجمال والظرف ، وحسن الصورة ، وجودة الضرب ، واتقان الصنعة ، والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب .

ويقول فى دنانير ، جارية البرامكة : كانت من أحسن الناس وجها وأظرفهم وأكملهم وأحسنهم أدبًا ، وأكثرهم رواية للغناء والشعر .

ويقول فى متيم : كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن اسحاق الموصلى وعن أبيه من قبله وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناء وأدبًا ، وكانت تقول الشعر ، ليس بالمستجاد ، ولكن يستحسن من مثلها . . .

ويقول فى فضل : كانت مولدة من مولدات البصرة ، وكانت أمها من مولدات اليمامة ، بها وُلدت ونشأت فى دار رجل من بنى عبد القيس ، وباعها بعد أن أدبها وخرجها ، فاشتريت وأُهديت الى المتوكل ... وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام ، أديبة فصيحة ، سريعة البديهة ، مطبوعة فى قول الشعر ، ولم يكن فى زمانها أشعر منها .

ولقد نشر الجوارى نوعًا من الثقافة ، وهو الفنون الجميلة ، وما يتبعها من رقى فى الذوق الفنى ، فقد كانت بجانب الحركة العلمية فى ذلك العصر : حركة أُخرى لا تقل عنها شأنا ، وهى الحركة الفنية ، من غناء وتصوير ورقص ، وكان الجوارى أكبر عامل فى نشر الشعور بالجمال ، وما يتبعه من فنون جميلة ، فان العباسيين لم يكتفوا بالجوارى من ناحية جمالهن الخَلْقى ، بل شغفوا بهن من ناحية الجمال الفنى أيضا ، ليجمعوا بين الجمالين ، فكانوا يميلون الى الغناء والرقص ، والى التفنن فى الملبس ، والى غير ذلك من ضروب الفن ، فأخذوا يعلمون الجوارى هذه الفنون ، وسرعان ما تحول النبوغ فيها من الرجال الى الجوارى .

ونشر الجوارى أنواعا من الظرافة ، قلدهن الناس فيها ، وجروا على أثرهن ، كحب الأزهار وتعشقها ، فكانت متيم ، جارية على بن هشام ،

يعجبها البنفسج جدًا . وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب ، حتى أنها من شدة اعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ، ولا تراه الا كما قطف من البستان .

وفطن الناس إذ ذاك الى دلالة الأزهار على المعانى ، فيقول الشاعر :

أهدت اليه بنفسجا يسليه   تنبيه أن بنفسها تُفديه
فارتاح بعد صبابة وكآبة   ورجا لحسن الظن أن تدنيه

ويقول آخر :

سُرَّ بالآس الذى أهدت له   ثم لما أهدت الورد جَزِع
ذاك أن الآس باق دائم   ولأن الورد حينا ينقطع

ونشر الجوارى نوعا آخر ظريفا ، وهو كتابة الأشعار الرقيقة ، والجمل الظريفة ، تطريزا على الأقمشة والأردية والأكمام ، والعصائب ، ومشاد الطرر ، والذوائب ، والزنانير والمناديل ، والوسائد والبسط ، والنعال والخفاف ، وبالحناء على الأقدام والراح . . .

وسيجد القارىء كثيرا من ذلك فى هذا الكتاب .

ونجح الجوارى فى اشعار الناس بالظَّرف ، والتزام حدوده ، حتى أصبح للظرفاء عرف خاص فى الزى والنظر ، والطعام والشراب ، وما الى ذلك . . .

وهو ما دوَّنه المؤلف أدبا للظرفاء .

ونشر الجوارى فن التجميل ، فقد كن يعمدن الى أساليب اصطناعية متعددة فى اظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها ، واحداث البلج بالافراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك فى شروط الجمال .

وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التى تختص بها الحواجب

من قرن [١] ، وزبب [٢] ، ومعط [٣] ، واستعاضت بعض الجوارى دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذى بلغه فن التجميل إذ ذاك ، بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الجليبات أسراره عن قومها وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليبهن .

وتنبهت الجوارى الى السواك ، المأخوذ من الأراك ، فاستخدمنه فى تنظيف الأسنان ، واخراج ما علق بينها من بقايا الطعام .

ولقد فتن الشعراء بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا واحدة منها ، للثم ما يتقدم الأسنان ، وتناقلوا الأحاديث عنها ، منها قول الشاعر :

نَقَلَ الأَرَاكُ بأنّ رِيقَةَ ثَغْرِهِ ... من قهوةٍ مُزِجَتْ بماءِ الكَوْثَرِ

وقول الآخر :

أقولُ لِمِسْوَاكِ الحَبِيبِ لَكَ الْهَنَا ... بِلَثْمِ فَمٍ ما نَالَه ثَغْرُ عَاشِقِ

وعرف العصر العباسى نوعًا من الجوارى متشبهات بالفتيان ، وهن المطمومات الشعر ، المسميات بالغلاميات ، وتعداهن هذا الزى الى الحرائر فى قصور الخلفاء والأمراء والقواد . فأخذت المرأة عهدئذ بقص الذؤابة [٤] الى مستوى الرقبة ، وبمد الوفرة [٥] حول الأذن ، والعقرب على الجبين ، أو رسم طرة عليه ، وذهب بعضهن الى رفع شعورهن ورسم هيئات متعددة ، وجعلن حول رءوسهن عصابة مزركشة بالألوان ، وكتبن عليها

(١) القرن : اتصال الحاجبين .
(٢) الزبب : كثرة الشعر فى الحاجبين .
(٣) المعط : تساقط الشعر من بعض أجزاء الحاجبين .
(٤) الذؤابة : الناصية ، وهى شعر فى مقدم الرأس .
(٥) الوفرة : ما سال من الشعر على الأذنين .

بالخيوط الذهبية أو الفضية شعرًا أو آية كريمة ، وأكثرهن كان يؤثرن الشعر الغزلى ، تقربا من مواليهن ، ومغالاة فى الفتنة ، وقد رسم أحدهم على عصابة جارية له هذين البيتين :

تمت ، وتمّ الحسن فى وجهها فكلّ شىء ما سواها محال
للناس فى الشهر هلال ، ولى فى وجهها كل صبح هلال

وجعل بعضهم فى عصابات الجوارى درًّا ، ينثرونه بأشكال هندسية ، أو ينسجون به خطوطا وحروفا وكلمات .

وغالين أحيانا فى هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم والخطوط ، وفى رفع شعورهن تاجا فوق مفارقهن .

وقد وجد الشعراء فى مثل هذه العصابات موضوعا شائقا للنظم والغزل ، فيرون مثلا أن الدر يزدان بالوجه الذى تحته ، كقول أحدهم :

واذا الدُّرُّ زَانَ حسْنَ وجوهٍ كانَ للدُّرِّ حسن وجْهِكِ زَيْنَا

وكان الجوارى أقرب النساء الى قلوب الخلفاء ، فأخذ نفوذهن يقوى شيئا فشيئا ، حتى أصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا .

ولقد ملكت « ذات الخال » زمام الرشيد ، حتى أنه أقسم يوما أنها لا تسأل شيئا الا قضاه لها ، فطلبت منه أن يولى أحد المقربين اليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، فامتثل لها ، وكتب عهدًا به ، وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ، ان لم تتم فى حياته .

وكان هارون الرشيد أول من غالى من العباسيين فى تفضيل الجوارى وتقريبهن ، فان معظم أولاده كانوا أولاد إماء ، منهم : عبد الله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل ؛ والقاسم المؤتمن وأمه أم ولد يقال لها قصف ؛ ومحمد أبو اسحاق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى

تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ، فدعاه ميله الى أمه الى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذين الفارسى والعربى ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان ؛ ومن أولاد هارون : صالح وأمه أم ولد يقال لها رئم ؛ ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد ابو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وامه أم ولد يقال لها رواح ، ومحمد أبو على وأمه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو احمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان .

ولقد قام بعض الجوارى بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين ، فاشتركن فى المؤامرات التى حيكت لخلع خليفة ومبايعة آخر .

فمنهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه الأتراك الخلافة وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره ، ظنا منهم أن بوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاءون ، لضعفه وصغر سنه ، فاذا بهم يلاقون عنتا شديداً من أمه ، وهى م ولد رومية ، فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم وحنكة مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها عباسى الحكم آنذاك ، وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين ، فكانت أمه تسعى إلى إعادته الى كرسى الخلافة ، حتى تألب عليه الخصوم ، فخرج لقتالهم فصرعوه .

ومنهن الجارية الشيرازية حسن ، التى عاشت أيام الخليفتين المتقى والمستكفى ، فهى التى سعت إلى إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت الى غلامها السندى بسمل عينيه ، عند ما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلطت على الثانى ، حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد .

ومنهن الجارية صبيحة [1] ، فقد اشتركت فى الغدر والطيش ، وأوغلت

(١) سماها المتوكل « قبيحة » اتقاء العين ، فقد كانت أبرع النساء جمالا .

فى الكيد ، فأشارت على ابنها أبى عبد الله المعتز ، حين كان خليفة ، أن يقتل أخاه المؤيد — من أبيه — ليتخلص منه ، فقتله .

وإن موقفها من ابنها لأسوأ موقف تقفه أم إزاء ولدها ، فقد طالبه الجنود بأرزاقهم ، وبيت المال خال ، فأرسل إلى أمه ، وكانت ذات ثروة طائلة ، يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم ، فأبت أن تعطيه شيئا ، وأنكرت ان يكون عندها شيء ، فدخل اليه القوم وجروا برجله الي باب الحجرة ، وتناولوه بالدبابيس ، فخرج وقميصه مخرق فى مواضع ، وآثار الدم على منكبه ، فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه ، ثم خلعوه ، وسلموه الى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر ، فمنعوه ، وبقى بعضهم يلطمه على وجهه ، وهو يتقى بيده ، ثم أدخلوه سردابا وحصصوا عليه ، فمات ؛ ثم نفوا أمه الى مكة ، وصادروا أموالها وكنوزها ، وجردوها من حليها وجواهرها [1] .

وكان الجوارى متعددات المصادر والأجناس والألوان ، مختلفات فى الدين ، ينتمين الى الاسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية ، وكان مواليهم يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة فى المواسم والأعياد ، وكثيرًا ما كانت تقام الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية فى قصور الخلفاء .

(١) يقول على بن أنجب فى كتابه « مختصر أخبار الخلفاء » : وجد لها مطمورة تحت الأرض فيها ألف ألف دينار عينا ، ووجد لها سفط فيه مكوك ذمرذ وفى سفط آخر مكوك لؤلؤ وفى سفط آخر كيلجة ياقوت لا يوجد مثله عند ملك ، فحمل جميعه إلى صالح ابن وصيف ، فقال : قبح الله قبيحة ، عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار ، وعندها هذه الأموال العظيمة .

ولقد أدى تدين الجوارى بغير دين سادتهن ، وتسربهن الى جميع القصور ، والحظوة التى كانت لهن فى القلوب الى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، فكان للمقتدر خال رومى يخاطبه الناس بالإمرة ، وكان ذا سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون اليه فى سبيل الوصول الى ما يريدون من نعم الخلافة .

وان ما ألمّ بالأمة من تغير الحال ، لفساد الحكومة ، وتوالي النكبات على الخلفاء ، حول همّ المفكرين الى نشر الحكم واخبار الزهد والزهاد ، وأقوال الحكماء ، وسير رجال العدل والحزم ، التى يترتب عليها العظة والاعتبار ، مع الحث على الاقتداء بهم ، لرد الناس عن غيهم ، فأخذوا يجمعون ذلك فى كتب الأدب ، ويرتبونها فى أبواب مبنية على الحكمة المستفادة منها ، كما صنع الوشاء فى الأبواب الثلاثة عشر الأولى من هذا الكتاب .

موضوعات الكتاب :

(ا) تحدث المؤلف فى الثلاثة عشر بابا الأولى عن حدود الأدب ، والنهى عن ممازحة الأخلاء ، والحث على انتخاب الأقران والاخدان ، وصحبة الاخوان ، وصفة المتحابين فى الله ، والبشاشة بالاخوان ، واتفاق القلوب على مودة الصديق ، والنهى عن استعمال الافراط فى حبه . وشرائع المودة وصفتها ، وفضل الصدق ، وكره الكذب ، وقبح خلف المواعيد ، والحث على كتمان السر . . . .

(ب) كما تحدث فى الباب الرابع عشر عن سنن الظرف ، وان العشق من تسنّن الظرفاء .

(جـ) ثم تناول فى الأبواب التالية من الخامس عشر الى الثانى والعشرين : الحديث عمن مات من شدة العشق ، ووصف الحب ، ومن تعفّف فى محبّته ، وذم القيان ، ومصارمة ذوى الغدر ، والنهى عن الهوى ...

(د) ولعل أبرز ما فى الكتاب تلك الأبواب التى تناول فيها الحديث عن زى الظرفاء فى الطعام والشراب ، وتصفيف الموائد والأطعمة ، وكيفية الأكل من وجوب تصغير اللقم ، والتحرز من الشره ، وعدم تلطيخ الأصابع أو تجاوز ما بين الأيدى ، او التخلل على المائدة قبل ان تفرغ ، وإفساد الرائحة بأكل الثوم والبصل ونحو ذلك .

ثم ذكر الظرفاء ، وزيهم فى اللباس ، والوان الملابس ، ومناسباتها للحفلات ، ومناسبة بعضها لبعض ، ومناسبتها للتكك والنعال والخفاف ، وزيهم المخصوص فى الخواتيم والفصوص ، والتعطر والتطيب .

وذكر متظرفات النساء فى اللباس ، وزيهن المخالف لزى الرجال ، فى لبس التكك والخفاف والنعال ...

ثم ذكر الأشياء التى يتطير الظرفاء من إهدائها ، وما قيل فى صفة الورد ، والتفاح ، وما جاء فى السواك ....

وصفة ذوي التظرف ، ومباينتهم لذوى التكلف .

(ه) وأخيرا ذكر ما اختير من ألفاظ الأدباء فى المكاتبات ، وماضمنوه كتبهم من الأشعار ، وما كتبوه على العنوانات ، وما كتب على الفصوص ، والتفاح ، والقنانى والكاسات والأقداح ، والأقلام ، والدراهم والدنانير ....

ثم ما كتبته الجوارى والقيان على ذيول الأقمصة والأعلام ، وطرر الأردية والأكمام ، والكرازن والعصائب ، ومشاد الطرر والذوائب ، والخفاف والنعال . والوطأة والوشاح ، والأقدام والراح ، والجبين والخد ، والعيدان والمضارب ، والطبول والمعازف ، والدفوف والنايات ....

نسخ الكتاب :

اعتمدت فى إبراز هذا المطبوع على ثلاث طبعات :

(ا) إحداها المطبوعة فى ليدن سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٦ م) باشراف المستشرق رودلف برونو[1].

(ب) والثانية التى نشرها المرحوم السيد محمد أمين الخانجى الكتبي سنة ١٣٢٤ هـ ، وهى منقولة عن الطبعة السابقة، فقدنشر هذين البيتين :

لا تأنفنّ من الخضو ع لمن تحب وداره
إخضَعْ له فلطالمَا مُلِّكت حَلّ إزاه

كما وردا بالنسخة الألمانية كهذا :

لا تأنفن من الخضوع لمن تحب وداره
إخضع له فلطالما ملكت حل إزاره

(ج) والثالثة التى طبعت على نفقة المرحوم مصطفى فهمى الكتبي بجوار الأزهر بمصر سنة ١٣٢٤ هـ وهى نسخة من المطبوع الذى نشره المرحوم

---

(١) ولد سنة ١٨٥٨ م فى آن أربور من أعمال مشيجن . وتوفى سنة ١٩١٧ ، وهو من أصل ألمانى أمريكى ، وتلقى دروسه العربية فى ألمانيا ، وعين فى سنة ١٩١٠ أستاذا للغات السامية فى جامعة برنستون بأمريكا ، واشتهر فى العلوم الأشورية ، وقد تولى حفريات حوران .

ويقول فى مقدمته للموشى : انه نشره عن مخطوط بمكتبة ليدن ، وهو الوحيد الموجود فى أوربا ، ويبدو أنه كان غير معروف فى الشرق ، فلم يذكر عنه شيئا حاجى خليفة (مؤلف كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون) .

ويقول فى وصف المخطوط : طوله تسع بوصات ، وعرضه ست بوصات ، ويحتوى على احدى وتسعين ومائة ورقة ، ومكتوب بخط النسخ ، وهولايحمل تاريخا ، ولكن الخط يدل على أن عمره حوالى خمسمائة عام ، والنسخة الأصلية جيدة ، ولكن يوجد بها بعض الاعجام ، وعناوين الأبواب مكتوبة بالحبر الأحمر ، وعلى الصفحة الأولى من الجزء الأول للكتاب قطعة من الورق قديمة ، وعليها قطعة جديدة مكتوب عليها بخط اليد الحديث :

هذا الكتاب الموشى تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة أبى الطيب
محمد بن اسحق بن يحيى الموشى يرحمه الله تعالى

وفهرست الأبواب أضيف حديثا أيضا . . .

الخانجى ، فقد وردت بها أبيات محرفة وناقصة ، كما جاءت بمطبوع المرحوم الخانجى ، مثال ذلك هذا البيت :

طلبتُ امرأً مَحْضًا صحيحا مسلَّما نَقِيًّا من الآفات فى كلِّ مَوْسِم

فقد نشر فى المطبوعين الثانى والثالث هكذا :

طلبت امرأ صحيحا مسلما نقيا من الآفات فى كل موسم

آثارنا فى الكتاب:

ولقد عانيت كثيرا لاخراج الكتاب فى طبعته هذه ، فقد كان هناك تصحيف وتحريف فى كثير من الأسماء ، ونقص فى الأبيات الشعرية .

ولم أشأ حذف بعض الألفاظ المكشوفة من الشعر ، لأنه يمثل الحياة الاجتماعية فى عصر العباسيين ، تلك الحياة التى كانت مزيجا من التقى والفجور ، واللهو والسرور ، وكان هـــذا الشعر يصف أحاسيس النفس ورغباتها وشهواتها فى حرية وانطلاق .

ما صار إليـه الكتاب :

وتم لنا بعون الله وفضله : إبراز هذا الكتاب ، بعد تصحيحه وضبطه ، وإكمال النقص ، وكشف غامضه ، ووضع فهارس للأعلام .

ونرى أنه قد برز فى ثوب أنيق ، وعسى ألا يجد فيه القارئ مغمزا ولا مطعنا .

رجاء :

وإنى لأضع هذا المطبوع بين أيدى حفاظ الأدب العربى ، وأرجو أن يحوز قبولا . كما أحمد لمكتبة الخانجى المصرية عملها باخراج هذا الكتاب

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنى إلى نشر آثار السلف الكريم ، وخدمة لغتنا العربية الجليلة ، فى هذا العهد الزاهر السعيد ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

كمال مصطفى

حلوان الحمامات فى يوم الأربعاء
٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢
١٨ من فبراير سنة ١٩٥٣

التعريف بالمؤلف

نسبه :

أبو الطيب محمد بن أحمد بن اسحاق بن يحيى ، ويُعرف بالوشاء ، والأعرابى وقيل : ابن الوشاء .

مولده :

لم يرشدنا التاريخ على وجه صحيح إلى مولده

وقد ذكر المستشرق رودلف بروفو أنه عاش فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (٨٦٠م) . ولعله اعتمد فى تحديد هذا التاريخ على أنه أخذ عن ثعلب والمبرد ، وقد ولد أولهما سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) وتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وولد الثانى سنة ٢١٠ هـ (٨٢٦ م) وتوفى سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) .

عصره :

تحدثنا فى « التصدير » عن الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية على عهده .

علمه :

كان أديبا ، فاضلا ، نحويا ، حسن التصنيف ، مليح الأخبار .

والغالب عليه تصنيف كتب الأخبار كالشعر والمقطعات .

أخذ عن أبوى العباس ثعلب والمبرد ، وغيرهما من الأئمة الاثبات .

وحدث عن أحمد بن عبيد بن ناصح ، والحارث بن أسامة .

وروى عن عبد الله بن أسعد الوراق وطبقته .

ويقول ابن النديم : وكان نحويا معلما لمكتب العامة .

ويقول القفطى : وكان يعلم فى دار الخلافة ورَوَتْ عنه مُنْيَةُ الكاتبة جارية أم ولد المعتمد على الله .

---

(١) الوشاء : الذى يشى الثياب ، أى ينقشها ويزخرفها .

وحدثت مُنَيَةُ إملاء من لفظها قالت : حدثني أستاذي محمد بن اسحاق ابن يحي النحوي المعروف بالوشاء قال : حدثني عبد الله بن عمر الوراق ، حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا أبو غسان محمد بن يحي ، أخبرني عبد العزيز ابن عمران ، عن ابراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة ، عن داود بن الحصين ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السَّخاء شجرة في الجنة . فمن كان سخيًّا أخذ بِغُصْنٍ منها فلم يتركه الغصن حتي يُدْخله الجنة ؛ والشُّح شجرة في النار ، فمن كان شحيحا أخذ بغصن منها فلم يتركه حتى يُدْخله النار .

شعره :

للوشاء شعر لطيف رقيق ، لم يبلغ حد الجودة ، ولكنه حسن النظم ؛ ولقد ذكر منه الكثير في هذا الكتاب .

ويقول ياقوت : نقلت من خط أبي عمرو محمد بن أحمد النُّوقاني : أنشدني الشافعي أحمد بن محمد : أنشدني أحمد بن محمد بن حفص : أنشدني أبو الطيب الوشاء لنفسه :

لَا صَبْرَ لِي عَنْكَ سِوَى أَنَّنِي ... أَرْضَى مِنَ الدَّهْرِ بِمَا يَقْدُرُ

مَنْ كَانَ ذَا صَبْرٍ ، فَلَا صَبْرَ لِى ... مِثْلِيَ عَنْ مِثْلِكَ لَا يَصْبِرُ

ومن خطه وإسناده للوشاء :

يَا مَنْ يَقُومُ مَقَامَ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

لَا تَحْسَبَنِّي خَلِيَّ البَالِ مِنْ سَهَدِ (١)

حَاشَاكَ مِنْ أَرَقٍ ، حَاشَاكَ مِنْ قَلَقٍ

حَاشَاكَ مِنْ طُولِ مَا أَلْقَى مِنَ الْكَمَدِ

(١) سهد : أرق .

حُزْنِى عَلَيْكَ لَا نَفَادَ لَهُ
أَوْهَى فُؤَادِى وَأَوْهَى عُقْدَةَ الْجَلَدِ [1]
وَالصَّبْرُ عَنْكَ قَلِيلٌ مُضْرِمٌ قَلَقًا
بَيْنَ الضُّلُوعِ كَصَبْرِ الْأُمِّ عَنْ وَلَدِ [2]

مصنفاته :

يقول القفطى : وللوشاء التصانيف الحسنة المشهورة .

وله من الكتب : كتاب مختصر فى النحو . كتاب الجامع فى النحو . كتاب فى المقصور والممدود . كتاب المذكر والمؤنث . كتاب الفرق . كتاب خلق الانسان . كتاب خلق الفرس . كتاب المثلث . كتاب أخبار صاحب الزنج . كتاب الزاهر فى الأنوار والزهر . كتاب السلوان . كتاب المذهب . كتاب الموشح . كتاب سلسلة الذهب . كتاب أخبار المتظرفات . كتاب الحنين إلى الأوطان . كتاب حدود الظرف الكبير . كتاب الموشى .

ويقول القفطى : وله كتاب « زهر الرياض » وهو كبير فى عدة مجلدات ، ملكت منها نسخة بخطه ، فى عشر مجلدات ، تشتمل على أنواع وأبواب من المنظوم والمنثور فى حسن اختيار ، تدل على كثرة الاطلاع والبحث .

ويقول جورج زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية : ذكر له صاحب الفهرست نحو عشرين كتابا فى النحو والأدب ، لم يصلنا منها إلا كتابان :

(١) كتاب الموشى : وهو فريد فى بابه ، يمثل آداب ذلك العصر ، ويتخلله كثير من المواعظ والحث على المصادقة والاخلاص والتعفف ، وفيه وصف الأزياء التى كانت شائعة يومئذ على اختلاف الطبقات ، وما اختير

(١) أوهى : جعله واهيا مشقوقا . (٢) مضرم : مشعل انزعاجا واضطرابا .

من الألفاظ للمكاتبات ، وفيه فصول ضافية فيما كانوا يكتبونه من الأشعار على الثياب والأعلام والعصائب والزنانير والمناديل والستور والوسائد حتى النعال، وعلى المجالس وآنية الشراب والعيدان .

ومنه نسخة خطية فى ليدن ، وقد طبع فيها سنة ١٨٨٦ ، وفى مصر سنة ١٣٢٤ وسموه كتاب الظرف والظرفاء .

(٢) كتاب تفريج المهج وسبب الوصول إلى الفرج .

منه نسخة خطية مختصرة فى مكتبة برلين .

وبدار الكتب المصرية كتاب : وصايا الملوك وأبناء الملوك ، يبحث فى وصايا الملوك وأبنائهم من ولد قحطان بن هود النبى عليه السلام وما ورد فى ذلك من أخبارهم وأشعارهم .

وهو منسوب إليه ، وطبع فى مطبعة الشاه ببغداد سنة ١٣٣٢ ، وهو ثلاثة أجزاء ، ويوجد بالدار الجزء الأول فقط .

وبالدار نسخة خطية غير كاملة ، ضمن مجموعة ، من هذا الكتاب .

وفاته :

مات أبو الطيب سنة خمس وعشرين وثلثمائة من الهجرة (٩٣٦ م) .